ثقافة العيش المشترك – أو في تأرجح الهوية بين الأنا والآخر

Culture of coexistence - or in the swing of identity between the self and the other

بوعلام معطر*

جامعة محمد خيضر، بسكرة–الجزائر boualam.maater@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2025-02-24	2025-08-01	2026-01-29

ملخّص: إذا كانت الشخصية هي ما يتميّز به الفرد عن غيره من بني البشر، فإنّ هذا يؤول إلى اعتبار الهوية موضوع فردي أو مجهود شخصي يحفظ كينونة الفرد ويميّزه عن الآخرين. بالمقابل يعيش الإنسان وسط الجماعة بدءا بالأسرة فالشارع ثم المدرسة، ومحاط كذلك بالإعلام ووسائل الاتصال، فهذا يعني أنّ للغير نصيب معتبَر من الهوية وتشكلاتها، مما يفرض علينا الحديث عن الهوية الجماعة. لهذا يتمحور موضوع هذا المقال حول الهوية الجماعية وتمظهراتها في الأمة.

وتأسيسا على ما سبق فإنّ المشكلة التي سأسعى للإجابة عنها يمكن صياغتها كما يلي: إذا كان –من المفترض عادة– مفهوم الهوية مرتبط بالفرد وشخصيته. فكيف يمكن إثبات أنّ الانتماء إلى الأمة يخلق شخصية وهوية جماعية؟ وقد أسفرت الدراسة على نتيجة مفادها أنّه من الصعب استبعاد الآخرين في تكوين هويتي كفرد.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الأنا؛ الآخر؛ العيش المشترك

Abstract: Personality is what distinguishes the individual from other people, and this leads to considering identity as an individual subject or personal effort that preserves the identity of the individual and distinguishes him from others. In contrast, the group has a large share in shaping identity, which forces us to talk about the identity of the group. Therefore, the subject of this research revolves around collective identity and its manifestations in the nation. Based on the above, the problem that I will seek to

* المؤلف المرسل

answer can be formulated as follows: If the concept of identity is usually associated with the individual and his personality, how can we prove that belonging to the nation creates a personality and a collective identity?

Keywords: Identity; coexistence; self; other

1–المقدمة: لكي نعثر على ما يكون الهوية الشخصية، ينبغي –بحسب جون لوك [John Locke] (1632-1704) أنْ ننظر إلى ما تعنيه كلمة شخص ذاتها، إنّها تعني كائنا مفكرا وذكيا ذا كفاءة عقلية وفكرية، وهو كائن بمقدوره مراجعة نفسه باعتبارها كذلك، أي باعتبارها نفس الشيء الذي يفكر في أوقات مختلفة وأماكن متباينة، ولعلّ هذا ما يمكن تسميته "هو نفسه" وهي التسمية التي تجعله متميزا عن أي شيء آخر مفكر، وعليها أيضا تقوم الهوية الشخصية أو ما يجعل كل كائن عاقل هو نفسه على الدوام.

إلا أنّ مايكل كاريذرس "Michael Carrithers" له رأي آخر؛ إنّنا –بحسبه– كنوع بشري نكشف عن قدر كبير من الاهتمام المتبادل والاعتمادية الهائلة على بعضنا البعض. والقول بأنّ الإنسان حيوان اجتماعي لا يعني وصف طبيعته بصفة عارضة طارئة، بل بصفة هي قسمة جوهرية تميز كنه ما هو بشري. فنحن لا نستطيع أن نكتفي بالحياة مجرد الحياة، ولا نستطيع أن نواصل وجودنا كبشر دون روح الترابط الاجتماعي.

من هذا المنطلق تُطرح إشكالية الهوية بين النزعة الفردية والجماعية. فإذا كان لكل إنسان شخصيته وهويته التي تميّزه عن الآخرين، ألا يمكن الحديث عن الشخصية الجماعية، والهوية الجماعية التي تمثل أفراد المجتمع؟

2–الأنا والآخر وحتمية إعادة النظر في مفهوم الهوية

1.2 الهوية وأشكالها: تُعَدّ الشخصية بمفهومها الفلسفي نظام متكامل من الخصائص الجسمانية والوحدانية والنزوعية والمعرفية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً بيناً. فهي صورة منتظمة ومتكاملة لأنّ وظائف الشخصية من حياة نفسية

وفكرية وسلوكيات ليست منفصلة عن بعضها البعض، كما تتميّز بالنمو والاكتساب، فهي في تطور مستمر لأنّ سلوك الشخص يتبدّل ويتغيّر وهذا بفعل المؤثرات المختلفة. كما تتميز الشخصية بالوحدة والثبات وهذا رغم اختلاف أحوالها، ورغم ما تتعرّض له من نغيّر وتبدّل في أحوالها، تبقى مع ذلك استمرارية ووحدة في الشعور، فتظل رغم ما يلحق بها تحافظ على هويتها، بمعنى تظل هي هي في نظر صاحبها وفي نظر الآخرين.

لذلك من الصعب ضبط مصطلح الهوية باعتباره من المفاهيم المجردة التي لا مقابل لها في الواقع الحسي، إذْ يُشار به إلى طبيعة كل شيء خصوصا صفاته الجوهرية في مقابل الصفات العرضية "حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات"[1] إنّ هذا التميّز لا يكون إلا بالجنس القريب والفصل النوعي.

أما مبدأ الهوية –من الناحية المنطقية– هو واحد من مبادئ العقل التي تقر أنّ الشيء هو نفسه (أ هو أ) ولا يمكن أنْ يكون شيئا آخر على الأقل في اللحظة نفسها "مبدأ الهوية مبدأ يعبّر عن ضرورة منطقية تقضي بأنْ يكون كل معنى يتصوّر على أنّه عين ذاته، فلا يتغيّر بحال... ويسمى بمبدأ وحدة الذات، وهذا المبدأ هو أساس الأحكام والبرهنة السليمة"[2]. إنّ هذا المبدأ إضافة إلى مبادئ أخرى ضرورية جدا لاشتغال العقل في تحليلاته واستنتاجاته، لذلك عبّر الفيلسوف الألماني ليبنيز [Leibniz] عن قيمتها قائلا "إنّها ضرورية لعمل العقل مثلما أنّ العضلات والأوتار ضرورية للمشي رغم عدم انتباهنا إلى ذلك، بحيث أنّ العقل يعتمد على هذه المبادئ في كل لحظة غير أنّه لا يتمكن من استخلاصها"[3].

أما الجرجاني صاحب كتاب التعريفات فقد عرف الهُوَّية تعريفا مزج فيه بين النظرة الفلسفية من جهة، والنظرة الغيبية من جهة ثانية: "الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[4]. فهي الأساس

الذي يُبنى عليه كل شيء. بالمقابل أنّ الحديث عن الهوية الجماعية هو حديث عن الأمة باعتبارها جماعة من الناس تربطهم صفات وعادات متجانسة. ومن خصائص الأمة وجود ثقافة تنمو على مرّ الزمن، وأهداف مشتركة تحقّق تقارب الأفراد وتعاونهم. وقد اختصر أسسها صاحب كتاب "العولمة عالم بلا هوية" في ثلاثة عناصر العقيدة التي توفر رؤية للوجود فالدين يعمل على تشكيل المجتمعات البشرية واللسان الذي يجري التعبير به –والتراث الثقافي الطويل المدى"[5]:

فالدين هو الرابطة الأساسية التي تربط بين أفرادها. والهدف من ذلك تكوين مجتمع إنساني يقوم على روابط العقيدة الدينية، وبالفعل فقد كان الدين الإسلامي منطلقا رئيسيا لميلاد الأمة الإسلامية ونموها وتطورها واستمرارها رغم وجود أصول عرقية متعدّدة. فالدين الإسلامي كان المصدر الوحيد لخلق الشعور بالانتماء، وتعزيز روابط الهوية الجماعية.

أما العنصر الثاني الذي يعمل على شدّ روابط الهوية الجماعية فيتمثّل في التاريخ؛ إذْ تُشكّل الأحداث التاريخية التي مرّت بها أجيال الأمة قاعدة متينة لتأسيس الذاكرة الجماعية، وإطار ا عاما للروابط الاجتماعية التي تنظم حياتهم في الحاضر، وترسم معالم مستقبلهم، ذلك أنّ الاشتراك في تراث متين، وفي الذكريات الماضية بأمجادها وآلامها من أكبر العوامل التي توحّد شعور أفراد الأمة وتحفظ هويتها الجماعية. وعلى هذا الأساس يكون لهم مصير واحد، كل هذا يعبّر عن وحدة وجدانية مصدرها الشعور بوحدة الماضي والمصير المشترك.

ويعدّ عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالفاكس [Halbwachs Maurice] (1877–1945) المؤسس الفعلي لعلم اجتماع الذاكرة، من أهم مؤلفاته "الذاكرة الجمعية عند الموسيقيين" "La mémoire collective chez les musiciens". أما أهم أفكاره ذات الصلة بموضوع بحثنا فقد بسطها في كتابه "الذاكرة الجمعية". وقد نجح هالفاكس

في هذا العمل إلى حد بعيد في إثارة الانتباه العلمي إلى مسألة تأرجح الهوية والتذكر بين الفرد والمجتمع، وهو اهتمام سوسيولوجي غير مألوف استطاع من خلاله إثبات أنه لا هوية ولا ذاكرة ولا تذكُّر من دون جماعة أو بمعزل عنها، كما أظهر في الوقت نفسه أنه لا جماعة واعية من دون ذاكرة جمعية، وهي نتائج توصل إليها عبر استناده إلى مقاربات متعددة من معارف متنوعة؛ مثل السوسيولوجيا، والفلسفة، والتاريخ، والانثروبولوجيا.

وإذا كانت الذاكرة تمثّل التحاما بين الفرد وجماعته، فإنّ النسيان هو ابتعاد عن الآخرين، أو هو فك لتلك الرابطة بحسب هالفاكس "أنْ ننسى فترة من حياتنا، هو أنْ نفقد الصلة بأولئك الذين كانوا يحيطون بنا في تلك الفترة"[6]. إن الذكريات الجماعية هي الأكثر استحضارا، والأسهل استرجاعا مقارنة مع الذاكرة الفردية "إن الذكريات الأصعب في استحضارها هي تلك التي لا تخص سوانا، تلك التي تشكل ملكيتنا الأشد حصرية"[7]. فكل ذاكرة فردية هي وجهة نظر تطل على الذاكرة الجمعية، إنها ليست مغلقة ومعزولة فلكي يستذكر المرء ماضيه الخاص هو في حاجة إلى ذكريات الآخرين. لذلك من الصعب الحديث عن هوية خارج الجماعة والأمة التي ننتمي إليها. لذلك يُعَد الآخر موضوعًا مهمًا في علم النفس والاجتماع والفلسفة، حيث يُعتبر جزءًا أساسيًا في تشكيل فهم الفرد لنفسه وهويته، هذه الأخيرة ليست مجرد مفهوم ذاتي يتم بناؤه بمعزل عن الآخرين، بل تتأثر بشكل كبير بالتفاعل مع الآخرين والمجتمع.

إنّ هذا الآخر يعمل كمرآة تعكس كيف يُرى الفرد من وجهة نظر خارجية. وعبر التفاعل مع الآخرين يدرك الفرد سماته الشخصية وكيفية تأثيره على محيطه. ومن خلال ملاحظات وتعليقات الآخرين، يتلقى الفرد تغذية راجحة تساعده على تعديل تصرفاته وفهم جوانب من ذاته. لذلك فالهوية تُبنى في سياق اجتماعي. إذْ يساعد الآخر في تحديد أدوار الفرد داخل المجتمع مثل كونه صديقًا، شريكًا، أو عضوًا في مجموعة

معينة. فالجماعات التي ينتمي إليها الفرد (مثل الأسرة، الأصدقاء، أو المجتمع) تشكل جزءًا كبيرًا من هويته. وفي كثير من الأحيان، تُبنى الهوية بناءً على الاختلاف عن الآخرين. فمن خلال مقارنة الذات بالآخرين، يدرك الفرد ما يجعله مميزًا وفريدًا. هذا الاختلاف يمكن أن يكون إيجابيًا (تعزيز تقدير الذات) أو سلبيًا (الشعور بالدونية أو النقص.

2.2 الأنا والآخر بين التجاذب والتنافر: يعد مصطلح الآخر من الموضوعات التي تتقاسمها العديد من التخصصات كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع، حيث يُنظر إلى الآخر كعامل مهم في تكوين الهوية الفردية وتشكيل ملامح الشخصية. إذْ يشير إلى الأشخاص أو الجماعات التي نتفاعل معها في حياتنا اليومية، بدءًا من الأسرة والأصدقاء، وصولاً إلى المجتمع الأكبر. فإذا كانت الأنا تشير إلى الذات الفردية التي تُدرك نفسها وتُعبر عن هويتها وأفكارها ومشاعرها، فإنّ الآخر هو أي شخص أو مجموعة خارج إطار الذات. يمثل التنوع والاختلاف في الأفكار والثقافات والتجارب.

وفي إطار التفاعل الاجتماعي يكون هو مصدر رئيسي للتعلم. من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين، يكتسب الفرد القيم، العادات، والمعايير الثقافية. وهنا تبنى الهوية من خلال التصويبات التي نقوم بها على سلوكنا وتفكيرنا. حيث تُبنى الهوية الذاتية جزئيًا من خلال مقارنة النفس بالآخرين، فما نعتقد عن أنفسنا يتأثر بكيفية رؤية الآخرين لنا. وهذا الاحتكاك يتيح للفرد فرصة للتعبير عن ذاته واكتشافها.كما يتّخذ التفاعل أشكالا متعدّدة، منها الدعم العاطفي فالآخرون يمثلون شبكة دعم مهمة، مما يسهم في تعزيز الشعور بالأمان والثقة بالنفس. والتفاعل مع الآخر يمكن أن يخفف من التوتر والضغوط النفسية. والآخر يمكن أن يكون مصدرًا للتحدي، سواء من خلال النقد أو الاختلاف في الآراء. هذه التحديات تحفز الفرد على التفكير والتطوير.

عموما فالآخر يعكس الخلفية الثقافية والاجتماعية التي يعيش فيها الفرد، وبالتالي يؤثر في تشكيل القيم والأهداف، يعزز شعور الانتماء والقيمة. ومن بين العلاقات التي تحكم التفاعل بين الأنا ولآخر علاقة التواصل، إنّها تُمثِّل جوهر العلاقات الإنسانية، وهي عملية حيوية تُعزز التفاهم والتعاون وتُسهم في بناء المجتمعات. ويمكن النظر إلى هذا التواصل من عدة زوايا، سواء كانت فلسفية، نفسية، أو اجتماعية. وللتواصل بين الأنا والآخر أهمية في الهوية وتشكُّلاتها. إذْ يساعد التفاهم المتبادل في تقليل سوء الفهم والتوترات الناتجة عن الاختلافات. ويعمل على بناء جسور التعايش السلمي بين الأفراد والجماعات المختلفة. النمو الشخصي :التواصل مع الآخر يُثري خبرات الأنا ويفتح آفاقًا جديدة للتعلم وإثراء الثقافات مع الآخر فهو يتيح تبادل الأفكار والتقاليد، مما يعزز التفاهم الثقافي.

ويمكن أن تواجه علاقة الأنا بالآخر مجموعة من التحديات قد تُفسِد التواصل. منها التحيزات المسبقة فالأحكام النمطية تُعيق فهم الآخر، وكذا الاختلافات الثقافية قد تؤدي إلى سوء فهم في حال عدم احترام التنوع. ضِفْ إلى ذلك ضعف مهارات التواصل :مثل عدم القدرة على التعبير أو الاستماع الفعّال، ويضاف إلى ذلك الخوف من الآخر سواء بسبب الجهل أو نتيجة التجارب السلبية السابقة. ولتجاوز الصعوبات سالفة الذكر ينبغي نشر ثقافة التسامح واحترام التنوع من خلال المناهج التعليمية. وكذا تعزيز مهارات التواصل الفعّال عبر ورش العمل والدورات التدريبية، الانفتاح الثقافي من خلال المشاركة في الأنشطة التي تجمع بين الثقافات المختلفة. الحوار البناء كأداة لحل النزاعات وتعزيز الفهم. عموما التواصل بين الأنا والآخر ليس مجرد وسيلة لنقل المعلومات، بل هو عملية لبناء الجسور بين القلوب والعقول، مما يُثري التجربة الإنسانية ويُعزز السلام والتفاهم بين الفرد –بصفته أنا– والمجموعة.

على هذا الأساس فدور الآخر في تكوين الهوية ليس محدودًا، بل هو عملية مستمرة تتأثر بالعلاقات الاجتماعية والبيئة الثقافية. الآخر يشكل جزءًا لا يتجزأ من رحلة الفرد لفهم ذاته وتعريف مكانه في العالم. وفي عصر العولمة، أصبح "الآخر" مفهومًا أوسع، يشمل أفرادًا من ثقافات وهويات مختلفة. هذا التفاعل مع الآخر المختلف ثقافيًا يثري الهوية ويزيد من تنوعها؛ إنّه يمتلك دورًا رئيسيًا في نقل الموروث الثقافي واللغوي والديني الذي يشكل الهوية. من خلال الاحتكاك بالآخرين، يتم تبني قيم ومعتقدات معينة.

ورغم أنّ الآخر يمكن أن يكون مصدر ضغط أو تحدٍ، رغم ذلك يساهم في تعزيز الاستقلالية وبناء هوية أقوى. وبتفاعل الذات مع الآخر قد يولد صراعات ديناميكية تدفع الفرد إلى إعادة التفكير في هويته. هذه الصراعات يمكن أن تكون مصدرًا للنمو وتطوير الذات. وهذا الآخر يمثل المجتمع والثقافة التي ينتمي إليها الفرد. من خلال التفاعل مع الآخرين، يتعلم الفرد القواعد والقيم والمعايير التي تحدد المقبول وغير المقبول. وهنا تتأثر الهوية الشخصية بمدى التزام الفرد بهذه المعايير أو تحديه لها.

وللثقافة تلعب دورًا أساسيًا في تكوين الهوية الفردية والجماعية، حيث تمثل مجموعة القيم والمعتقدات والعادات والتقاليد التي تشكل الشخصية والانتماء للمجتمع. ويتمظهر تأثير الثقافة على الهوية في تحديد القيم والمبادئ التي يعتمدها الفرد والمجتمع، كفكرة الاحترام، التعاون، أو الحرية. إنها تُغرس في الأفراد من خلال القيم الثقافية السائدة. وتعمل الثقافة على تشكيل الانتماء الاجتماعي؛ فمن خلال اللغة والعادات والتقاليد، يشعر الأفراد بأنهم جزء من جماعة أكبر، مما يعزز الهوية الاجتماعية ويخلق شعورًا بالانتماء والهوية الجماعية، فالثقافة توجه الأفراد إلى كيفية التعبير عن أنفسهم، سواء من خلال الملابس، الفن، أو الأذواق الشخصية، مما يجعلها

عاملاً مؤثرًا في تشكيل الهوية الفردية. كما تُحافظ على التاريخ المشترك والذاكرة الجماعية للمجتمع، مما يعزز من فهم الأفراد لجذورهم وهويتهم.

أما في المجتمعات متعددة الثقافات، يمكن أن تُسهم الثقافة في بناء هوية مشتركة تحترم التنوع وتُشجع على التعايش. وتزايد مد العولمة، تصبح الثقافة عنصرًا أساسيًا في الحفاظ على الهوية من خلال إبراز الخصوصيات الثقافية التي تميز مجتمعًا عن آخر.

على هذا الأساس تزداد أهمية الحفاظ على الثقافة في عصرنا أكثر من أي وقت مضى فهي تشتغل على تعزيز الوعي الثقافي ونقله للأجيال القادمة.التنوع الثقافي يزيد من الإبداع والتفاهم بين الشعوب. لذلك تُعتَبر الثقافة هي العمود الفقري للهوية؛ فهي التي تُعطي للإنسان إحساسه بالذات وتجعله متفردًا ضمن جماعته وفي العالم الأوسع.

3- ثقافة العيش المشترك: التمظهرات والأسس

1.1.3 اللغة من الوظيفة التواصلية إلى الوظيفة الإرشادية: من أجل تواصل الإنسان مع غيره استلزم وجود اللغة. فما هي اللغة؟ ما وظائفها؟ هل هي مجرد وسيلة تواصل، أم أداة حاسمة في منظومة التوجيه؟ وإلى أي مدى يمكن تنميط الإنسان وقولبته من خلالها، لنجعل من سلوكه خادما متواضعا لتعزيز ثقافة العيش المشترك؟

لا تُعدّ اللغة أداة اتصال وتواصل فحسب، إنها وسيلة تربوية لصناعة الأفكار، وبالتالي تشكيل الوعي المناسب. من هذا المنطلق ينبغي أنْ يتحرك الجهات الفاعلة في المنظومة التربوية، فاللغة المُكيّفة ترسم للوعي مجالات محدودة لا يمكن له أن يتحرك إلاّ في إطارها، حيث تغدو اللغة بفعل التنميط مُنتِجة للوعي الثقافي المطلوب والمسموح به.

فاللغة "نظام إشاري لأيّة طبيعة فيزيائية، يحقق الوظائف المعرفية والتواصلية في عملية النشاط الإنساني. ويمكن أن تكون طبيعية واصطناعية معا ... وهي ظاهرة

اجتماعية تنشأ خلال تطور الإنتاج الاجتماعي، وتُعَدّ جانبا لا ينفصل عنه –فهي وسيلة لتآزر النشاط الإنساني"[8].

لكن التمعُّن الدقيق في الرموز اللغوية كخاصية إنسانية، وعلاقتها بحرية الإنسان وأفكاره وأفعاله، يُلاحظ بأن لها إفرازات مختلفة، فهي من جهة ترفع شأن الإنسان مقارنة بالحيوان، وهي من جهة ثانية وسيلة توجيه وإرشاد؛ فقد يتبادر للكثير مِنّا أنّ ما يميز لغة الإنسان عن لغة الحيوان، هو الفرق الكمي الذي تزخر به لغة البشر مقارنة باللغة المحدودة للحيوانات، إلا أنّ اللغة الإنسانية تتميز بخصائص تنفرد بها عن وسيلة الاتصال الحيواني:

أنها مكتسبة عن طريق التعلم، فهي ميراث اجتماعي ثقافي يتغير عبر التاريخ، ومن هذا المنطلق يظهر دور النظام التربوي في استحضار آليات تثبيت الهوية الوطنية وتعزيزها بالمصطلحات والأفكار المناسبة. وكذا إقصاء كل ما من شأنه المساس بالهوية.

كما يرتبط وجود اللغة عند الإنسان بالعقل، والذي تُقدِّم من خلاله إشارات السيطرة أو الخضوع، بحسب السلم العائلي والاجتماعي والسياسي؛ لقد ألحّ كونفوشيوس Confucius على ضرورة احترام سلطة الأسماء، ومعناه احترام أبجديات الدخول في المؤسسات "عندما كان كونفوشيوس يردِّد مبدأ "تبرير الأسماء" مطالبا كل أحد ألا يحيد عن وظيفته الاجتماعية، وأن يعيش وفق طبيعته الاجتماعية، وأن يعمل الملك كملك والراعي كراعي، والأب كأب والابن كابن، فإنّه لم يكن إلا معبرا عن حقيقة طقوس الدخول في المؤسسات"[9]. وأَثَر العقل في اللغة واضح، فبدونه تكون مجرد ضوضاء خالية من المعنى؛ فحتى الذين وُلِدوا صمًّا بُكمًا قد اعتادوا على اختراع–من تلقاء أنفسهم– إشارات يفهمها من يجد الفرصة الكافية لتعلم لغتهم.

وتتّصف أيضا بازدواجية خاصية الكلام ولها بنية مركبة وتنقسم إلى مستويين: فعلى المستوى الصوتي تتمثل في الأصوات التي نصدرها أثناء الكلام، حيث تتألف لتصير كلمات محدودة ذات معنى. أما المستوى التركيبي وهو الذي يتضمن عناصر مركبة ذات معنى (الجمل)، على أن لا يتوقف التركيب على المفردات، بل على القواعد النحوية والصرفية، وعلى قواعد وأعراف اجتماعية.

ولها أيضا قدرة التحوّل، من حيث أنها تمنح الإنسان المقدرة على أن يتكلم عن الأشياء والأحداث عبر الزمان والمكان، فلغة الإنسان ليست مرتبطة فقط باللحظة الراهنة، بل تعود إلى الماضي وتنْفذ إلى المستقبل؛ إنّها تُذكّر الفرد بتاريخه وانتمائه وطبقته التي لا ينبغي أن يحيد عنها، وهي تحّدد له ما ينبغي أن يفكّر فيه وما يأمل الحصول عليه مستقبلا، باختصار إنها تحمينا من كل النواحي. وما دامت اللغة قابلة للانتقال بِحُكم أنّها مكتسبة بالتعلم والمحاكاة، فهي تُحدّد للأفراد العادات والتقاليد وتُنقِلهم من جيل إلى جيل، لذلك تعمل على إبقاء الهوية الوطنية وتعزيزها.

ولا يمكن فهم التأثير اللغوي من دون الاطلاع على مكونات اللغة من رموز ودلالات، فالرمز هو علامة تحتوي على خصائص وصفات ما تدل عليه، والرمز يستدعي ويحضر للشعور والوعي المعنى والدلالة اللذان نقصد لتبليغهما. فالأشياء والعلامات التي نرمز بها، لا تعبر وتخبر فقط عن نفسها، بل تحتوي على الخاصية العامة للشيء أو المعنى الذي نرمز له.أما العلامة أو الدلالة اللغوية فهي وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين، فهي ما يلزم من العلم شيء آخر، وتنقسم إلى دال ومدلول. فالدال له طابع مادي وهو عبارة عن أصوات وأما المدلول فهو ذو طابع ذهني. أما العلاقة بين الدال والمدلول فهي اعتباطية تعسفية، فالعلامة اللسانية لا تُوحِّد بين الاسم والشيء. إذْ لا توجد ضرورة عقلية أو تجريبية تفرض على اللغويين

التعبير على معاني الأشياء بألفاظ محددة، بل يتم اقتراحها دون مبرر مثل سيد، عبد، حاكم، أمير ... إلخ، وهذا ما يجعلنا نقول بالتواضعية الاعتباطية.

لكن رغم كون العلامة اللغوية اصطلاحية تواضعية. إلا أنّ هذه الاعتباطية لا تعني أن الفرد له الحرية في وضع العلامات حسب هواه، بل يتقيد ذلك بالاستعمال الاجتماعي. "وهكذا عندما يتعلّق الأمر بتحليل الاستعمالات الاجتماعية للّغة، فإنّ القطيعة مع المفهوم المجرد للموقف بين متكلم مثالي ومستمع مثالي، وهي نفسها التي تدخل قطيعة مع نموذج دوسوسير [Ferdinand de Saussure] وتشومسكي (Avram Noam *Chomsky*)، قد فرضت علي التفكير في علاقات التبادل اللغوي، باعتبارها عددا من الأسواق المحدّدة في كل حالة بواسطة بنية العلاقات بين رؤوس الأموال اللغوية أو الثقافية للمتكلمين وللجماعات التي ينتمون إليها"[10]. وفي كلتا الحالتين سواء قولنا بالاعتباطية، أو التقيُّد بالاستعمال الاجتماعي فالنتيجة واحدة: إنّ اللغة جهاز موجه في عملية السيطرة.

2.1.3 اللغة وصناعة الفكر: باعتبار اللغة مجموعة الإشارات والرموز التي يتخذها الإنسان كجهاز تعبير وتواصل، ويحقق بواسطتها أغراضه. فإنّ الفكر هو مجموع التصورات والمعاني التي يستوعبها الغير بواسطة اللغة. وهذه الأخيرة "شكل من وجود الفكر وشكل للتعبير عنه – وهي في الوقت نفسه تقوم بدور هام في تشكيل الوعي، حيث لا يوجد الوعي ولا يستطيع أن يوجد خارج اللغة. والعلامة اللغوية باعتبارها اصطلاحا بالنسبة لِما تدل عليه بفضل طبيعتها المادية مشروطة مع هذا اجتماعيا... واللغة وسيلة لتثبيت وحفظ المعرفة المتراكمة، ونقلها من جيل إلى جيل. واللغة وحدها تتيح وجود الفكر المجرد. وحضورها شرط ضروري للنشاط التعميمي للفكر"[11]. باختصار إنّ مقدرتنا اللغوية موازية لقوة تفكيرنا.

هذا ويتمظهر التأثير اللغوي أيضا من خلال تحديد ما صدق المفاهيم التي تجيء إلى فكر الإنسان؛ إنها لا تستطيع أن تنشأ وتوجد إلا على أساس مادة اللغة، أي على أساس الألفاظ والجمل والعلامات، فلا وجود لأفكار عارية مستقلة عن مواد اللغة. إنّ المعنى لا وجود له إلا إذا تَميَّز عن غيره من المعاني، ولا يكون التميُّز إلا بعلامة يدركها الإنسان، سواء بالتعبير عنها أو الإشارة إليها، مما يسمح للجميع بإدراكها، فالإنسان لا يتعرف على الفكرة صحَّتها ووضوحها إلا لأنّه قابلة لِأَنْ يتصوّرها الآخرين.

فالتطلع إلى فهم نفوذ اللغة من وجهة نظر لسانية، والبحث في اللغة عن مبدأ المنطق الذي يحكمها، معناه التغافل عن كون السلطة تحصل للغة من الخارج، وفيه تقزيم لمفعولها، على هذا الأساس يتوجّه بورديو [Bourdieu] (1932م-2002م) بالنقد لـ (أوستين) فيما يخص محدودية محاولته في حصره لخصائص الألفاظ، فهو "لا يفعل بالضبط ما يعتقد أنه فاعل، ففي الوقت الذي كان يعتقد فيه أنه يسهم في فلسفة اللغة، كان في واقع الأمر بصدد إنجاز نظرية في صنف خاص من التمظهرات الرمزية، التي لا يُمَثِّل الخطاب السلطوي سوى شكلها النموذجي"[12]

ويبدو التكوين اللغوي جليا باعتباره رأسمال، إذْ يتمظهر في حقل الثقافة بمثابة الرأسمال الاقتصادي عند كارل ماركس وحتى لو استبعدنا فكرة السيطرة، نلاحظ بأنّ اللغة هي الوسيلة الوحيدة لإبراز الفكر من الكتمان إلى حيز التصريح، وتُقدِّم تعاريف جاهزة، وتَصِف الأشياء حتى لا تتداخل مع غيرها. إنّها تُعطي للمعاني الوجود الواقعي، وتُلبِسها حُلَّة اجتماعية، فالإنسان لا يمكن أن يتصور بوضوح إلاّ ما انتظم في نسق من الألفاظ والرموز المكتسبة.

وتُعَدّ المدرسة المحطة الهامة التي يتلقى فيها الفرد تكوينه العلمي والثقافي السائد في مجتمعه باستعمال التلقين عن طريق اللغة؛ إنّ اللغة عموما، وفي الوسط المدرسي على وجه الخصوص، ليست مجرد وسيلة اتصال. إذْ تُعتَبر محطّة هامة في تشكيل

الوعي المناسب. فهي أداة تواصل ووسيلة هامة لصناعة الأفكار. من هذا المنطلق ينبغي أن تتحرك المدرسة نحو تحقيق أهدافها، عن طريق قولبة الأفكار، وصناعة الثقافة التي تريد أن تسود داخل المجتمع فالتلاميذ يجيئون إلى المدرسة ولهم دراية مسبقة بنسبة المكافأة أو العكس، حسب هذا النوع أو ذاك من اللغة. إنّها تُحَدّد ما يجب أنْ يكون مُتاحا للتداول وما ينبغي السكوت عنه، فهي ترسم للوعي مجالات محدودة، لا يمكن له أن يتحرك إلا في إطارها، حيث تغدو بفعل التنميط لا تنتج إلا الوعي الثقافي المطلوب والمسموح به.

أما بول جرايس (Paul Grice) [1988 –1930] فقد ذهب إلى أنّ المعنى الذي يقصده المتحدث له الأسبقية على المعنى اللغوي، أي أنه يرد السيمانيطقا أو علم الدلالة إلى سيكولوجية البحث في التوجهات، وقد ساعدت المفاهيم الجديدة التي قال بها بول جرايس علماء اللغة، كما ساعدت الفلاسفة على وضع الحدود بين علم الدلالة (السيمانطيقا) وعلم التداول (البراجماطيقا) والتمييز بين المعنى والاستخدام .

وهي نظرية تنطلق مما يسمى بفلسفة اللغة الطبيعية، والتي طرحها فيتجنشتاين في كتابه بحوث فلسفية، وفى فكرته الأساسية عن الألعاب اللغوية، والتي مفادها استحالة الفصل بين الدلالة والتركيب والتداول، أي الاستخدام الفعلي الحي للغة، والتي تختلف جميعا من لعبة إلى أخرى. ولهذا فإنّ فاعلية السلطة لا تمثلها هياكل جوفاء، فهي ترتكز على مبادئ السيطرة والشمولية، وبهذا ينبغي على المدرسة الاستثمار في أهمية اللغة وحيويتها، وما لها من سلطة وقدرة على التوجيه، وهو ما يستوجب توظيفها بالكيفية التي تناسب توجيه الإنسان نحو فضاء خدمة الهوية الوطنية.

لذلك لا يمكن قبول أطروحة (فيرديناد دوسوسير) في الفصل المطلق بين اللسانيات التي تقتصر على اللغة في باطنها وتلك التي تهتم بما هو خارج عنها، بين علم اللسان وعلم الاستعمالات الاجتماعية للغة، أي الشروط الاجتماعية لاستخدام

الكلمات. على هذا الأساس فاختزال الفعل البيداغوجي إلى مجرد علاقة تواصل، مفاده الامتناع عن الإحاطة علما بالمميزات النوعية لنفوذ المؤسسة البيداغوجية، فالفعل البيداغوجي ليس مجرّد علاقة تواصل بين المعلم والمتلقي، بل هو أداة فرض وتلقين وبالتالي تمرير قوالب ثقافية معينة.

ويؤكِّد الكثير من علماء اللغة على أنّ ما يسمى بالشحنة التعبيرية التي يُعتَقَد أنّها مضمرة في العبارات، لا يمكن أن نجدها في الكلمات ذاتها، كما أن رَدّ المبادلات الرمزية إلى علاقات تواصل بَحْت، واقتصار المضمون الإخباري للرسالة على محتواها التواصلي، أمر لا يقع إلا نادرا "إن المشكلة المتعلقة بنفوذ الكلمات متضمنة في استبعاد مسألة استعمالات اللغة، أي الشروط الاجتماعية لاستخدام الكلمات.

فعندما نتناول اللغة من حيث هي موضوع مستقل، مسلِّمين بالفصل الجذري، الذي أقامه دوسوسير، بين اللسانيات الخارجية، بين علم اللسان وعلم الاستعمالات الاجتماعية للسان، فإننا نحكم على أنفسنا بالبحث عن سلطة الكلمات، أي بالبحث عن تلك السلطة حيث لا توجد"[13]. إنّها لا تحصل إلا قليلا، لاسيما في ظروف التجريب المصطنعة. وما يؤكّد دور اللغة في تعزيز الهوية الجماعية أو في محوها ما أقبل عليه الاستعمار الفرنسي؛ لقد حاول بكل ما أوتي من قوة استبدال اللغة العربية بالفرنسية على صعيد المؤسسات، وعلى المستوى التربوي خصوصا، فاللغة السائدة تُنتج حتما الثقافة التابعة لها.

وفي كل الحالات هناك نافذة تطل منها الإيديولوجيا دوما لفرض أولوياته على البيداغوجيا باستعمال اللغة كآلية لتجسيد الأهداف. فإذا كانت الأهداف الصريحة تتحدّث عن الإنسان الحر والمتكامل، فإنّ الأهداف التربوية الخفية غالبا ما تصبّ في خدمة النظام الاجتماعي وتعزيز الذاكرة الجماعية؛ أي الضبط الأخلاقي والثقافي والإيديولوجي.

2.3 الدين: تعدّ الثقافة الدينية من المرتكزات الأساسية لتكوين المجتمعات البشرية، والرابطة الهامة بين أفرادها، ومن الشواهد على ذلك الأمة الإسلامية، لقد كان الدين الإسلامي منطلقا متينا لتشكّل الهوية الإسلامية ونموها وتطورها وانتشارها واستمرارها يقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 92 "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ". وقد تكونت هذه الأمة من عرقيات مختلفة، ثم توحدت في بوتقة الدين. وكان للدين نفس الدور في العالم الغربي أين وحّد الأمة الغربية تحت الهوية المسيحية. على هذا الأساس يمكن اعتبار الدين نقطة الانطلاق في خلق الشعور بالانتماء، وفي تعزيز روابط الأخوة والتسامح والتعاون بين الأفراد الذين تربطهم عقيدة دينية واحدة.

3.3–الأرض: إنّ اتصال الأرض أو الرقعة الجغرافية يعني مبدئيا الاتصال الدائم بين أفراد الأمة، وذلك عبر الأنشطة المختلفة التي يقومون بها، وعبر العلاقات المستمرة التي تجمع بينهم في مختلف المناسبات، مما يؤكد على أنّ وحدة الأرض لها أهمية كبرى في تكوين الأمة، بدليل أنّ الشعور الوطني قوامه تقديس الأرض التي ولد فيها كل فرد من أفراد الأمة. وفي ضوء هذا السياق المادي لتكوين الأمة، رأى بعض المفكرين "الماركسية على الخصوص أنّ الأنشطة الاقتصادية بمختلف أشكالها وأنواعها، من فلاحة وتجارة وصناعة تشكل أساسا ماديا متينا لبناء الأمة، وبعبارة أخرى فالمصالح الاقتصادية المشتركة هي التي تكوّن الروابط الاجتماعية بين الأفراد، وتبعث فيها الشعور بالتضامن والوحدة.

وحقا أن الأرض قد توفر الأساس المادي لنشاط الأفراد وتستطيع أن توحد بينهم، ذلك أن الرقعة، إنّ صراع البقاء الدائر اليوم في فلسطين يندرج هو مسالة أرض اقتحمتها مجموعة من الناس ووحدتهم. لذلك يعمل الغرب على إيجاد مكان آخر للفلسطينيين خارج الأرض الفلسطينية.

4.3-الماضي والمصير المشترك: تشكل الأحداث التاريخية التي مرت بها أجيال الأمة قاعدة متينة للقرابة المعنوية التي تجمع بينهم، وإطارا شاملا للروابط الاجتماعية التي تنظم حياتهم في الحاضر، وترسم معالم مستقبلهم، ذلك أنّ الاشتراك في تراث متين، وفي الذكريات الماضية بأمجادها وبآلامها من أكبر العوامل التي توحِّد شعور أفراد الأمة، وتبعث فيهم روح التآلف والتضامن والتعاطف فيما بينهم. وهذا ما يجعلهم يرغبون في العيش المشترك في الحاضر ويتطلعون إلى أفاق المستقبل. وعلى هذا الأساس يَكون لهم مصير واحد. كل هذا يُعبّر عن وحدة وجدانية مصدرها الشعور بوحدة الماضي والمصير المشترك.

فالأمة إذن مصدرها التاريخ الذي يكون وعي الأمة ويشكل نسيج وجودها في الماضي والحاضر والمستقبل. ولا شك في أنّ التاريخ يعد من أبرز مقومات الأمة لأننا لا نستطيع أن نتصور أمة بدون جذور تاريخية ولا أدل على ذلك من الاهتمام الذي حظي به هذا العامل الحيوي عند الأمة الحديثة والمعاصرة، وعلى الخصوص الأمم التي تحررت من قيد الاستعمار، فهي تبذل كل ما في وسعها لإحياء تراثها وبعث مقومات شخصياتها، لأن التاريخ ما هو إلا شعور الأمة بذاكرتها، ومن ثم بذاتها وشخصيتها.

والنتيجة التي نستخلصها من كل هذا، أنّ اختلاف الفلاسفة والمفكرين حول عوامل تكوين الأمة يدل على حيوية مفهومها، فكل واحد منهم يرجع تكوين الأمة إلى عامل أو عدة عوامل. ولكن تكوين الأمة لا يمكن حصره في هذا النطاق العام، بل أنّ تكوينها يرجع في الواقع إلى العوامل الخاصة التي تفاعلت معها. وهذه العوامل تختلف باختلاف أحوال الأمم وظروفها. ومعنى هذا أنّ لكل أمة أصولها. ولكن هذه الأصول مرتبطة بوعي أفرادها، وهي على العموم تتأثر بعقل الإنسان وإرادته فالإنسان بذلك هو

الذي يعطي الأولوية لهذا العامل أو ذاك، وهذا حسب مقتضيات الواقع الذي يفرض عليه البقاء والاستمرار.

4- الخاتمة: مما سبق يتضح بأنّ نقطة الارتكاز الأساسية في فهم إشكالية الهوية هي الانطلاق من الشخصية الفردية، فالجماعية المتعلقة بحياة الأمة، وإذا كان السؤال الفلسفي الكلاسيكي قد تمحور حول كيف ينبغي للمرء أنْ يحيا. فإنّ السؤال الأكثر طرحا في الحقبة المعاصرة فهو كيف نحيا معا. ويؤول هذا السؤال إلى مجموعة عديدة ومتنوعة من المشكلات أهمها: كيف السبيل إلى إدراك هويتنا وتميزنا ؟ وكيف نرتقي من الفردية إلى الجماعية.

فالفرد لا يصبح شخصا إلا عن طريق الحياة الاجتماعية، فالتنشئة الاجتماعية بما تتضمنه من معطيات ثقافية وقوالب للسلوك تعمل على ادماج الفرد في الاطار الثقافي العام عن طريق إدخال التراث الثقافي في تكوينه وتوريثه إياه توريثا متعمدا بتعليمه نماذج السلوك المختلفة في المجتمع الذي ينتسب إليه. وهكذا فالمجتمع الانساني جماعة منظمة تعيش في مكان وزمان معينين، تشترك في مجموعة من الاتجاهات والأهداف وأنماط السلوك، وتعدّ الاجتماعية بالنسبة للفرد أحد النقاط الهامة في نمو شحصيته.

فالمجتمع هو البيئة الضرورية والوسط الحيوي الذي فيه تتشكّل وحدة الفرد، وتنمو شخصيته، وتتحدّد معالم هويته بالتدريج. إنّ عملية الانتقال من الفرد إلى الشخص فيما يرى المفكر مالك بن نبي تتطلّب المرور بمرحلة التنشئة الاجتماعية "إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع. هذه العلاقات الخاصة بعالم الأشخاص هي التي تقدم الروابط الضرورية بين الأفكار والأشياء في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمع ما"[14].

5- قائمة المراجع:

1- ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع. . القاهرة، 1983.

2-الشريف الجرجاني، *التعريفات*. دار عالم الكتب، بيروت، 1680م.

3- بيار بورديو. الرمز والسلطة. ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، 2007.

4- بيار بورديو، قواعد الفن، ترجمة ابراهيم فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013.

5- روزنتال، الموسوعة الفلسفينة، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011.

6- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ط3، ترجمة عبد الصبور، دار الفكر. دمشق، 1986.

8- محمود سمير المنير، *العولمة عالم بلا هوية*. دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة، (2000م).

9- موريس هالفاكس، الذاكرة الجماعية، بيت المواطن للنشر والتوزيع، بيروت، 2016.

10- Gottfried Leibniz, *Nouveaux Essais sur l'entendement humain, 1886.*

11- Pierre Bourdieu .*Ce que parler veut dire*, Fayard, Paris,1982.

الهوامش والاحالات

[1]- ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع. . القاهرة، 1983، ص: 208.

[2]- ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع. . القاهرة، 1983، ص: 168.

3 -Gottfried Leibniz .(1886) .*Nouveaux Essais sur l'entendement humain, p: 86.*

[4]– الشريف الجرجاني، *التعريفات*. دار عالم الكتب، بيروت، 1680م، 314.

[5]– محمود سمير المنير. *العولمة عالم بلا هوية*. دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة، 2000م، 149.

[6]– موريس هالفاكس، الذاكرة الجماعية، بيت المواطن للنشر والتوزيع، بيروت، 2016، ص: 52.

[7]– موريس هالفاكس، الذاكرة الجماعية، بيت المواطن للنشر والتوزيع، بيروت، 2016، ص: 67.

[8]– روزنتال، الموسوعة الفلسفينة، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011، ص: 410.

[9]– بيار بورديو، قواعد الفن، ترجمة ابراهيم فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ص: 27.

[10]– بيار بورديو، قواعد الفن، ترجمة ابراهيم فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ص: 250.

[11]– روزنتال، الموسوعة الفلسفينة، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011، ص: 410.

[12]- Pierre Bourdieu .(1982) .*Ce que parler veut dire*, Fayard, paris, p: 104.

[13]- Pierre Bourdieu .(1982) .*Ce que parler veut dire*, Fayard, paris, p: 103.

[14]– مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ط3، ترجمة عبد الصبور، دار الفكر. دمشق، 1986، ص: 31.